

الفصل العاشر

إمارة ربيعة (أبناء كنز الدولة)

وصلاح الدين الأيوبي في عهد الخلافة الفاطمية

٥٦٤-٥٦٧هـ / ١١٦٨-١١٧١م

واجهت الخلافة الفاطمية اعتداءات الصليبيين الأوربيين الذين أرادوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية واستعمارها . وكانت جيوشهم قد أخذت تتوافد على الشام الكبير ومشارف مصر . وأرسل نور الدين زنكي أخاه أسد الدين شيركوه إلى مصر مع جماعة من أهله سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٨ م لمساعدة الخليفة الفاطمي ، وأصبح أسد الدين وزيرا للعاقد بالله حتى إذا مات تقلد هذا المنصب ابن أخيه صلاح الدين يوسف الأيوبي ، وكان معه في مصر أخوه الأكبر شمس الدولة توران شاه . عندما أصبح صلاح الدين وزيرا للخليفة الفاطمي أراد أن يكون هو المتصرف في كل أمور الدولة ولكن وجد أن هناك من ينافسه في نفوذه .

فقد كان بالإضافة إلى من معه من جنود أتراك وأكراد ، كان هناك جند من السودان يبلغ عددهم خمسين ألفا تحت قيادة زعيم سوداني من أمراء القصر الفاطمي هو مؤتمن الخلافة . فكان كل من صلاح الدين ومؤتمن الخلافة يرى في الآخر منافسا خطرا له ، وقبل كل منهما الآخر على مضض .

كذلك فقد كان صلاح الدين من أهل السنة ، وربما لم يكن راضيا عن الدفاع عن دولة شيعية ، ولهذا فقد كان ينتهز الفرصة للقضاء عليها طالما كان في يده الجيش الكردي التركي الكبير .

وكان صلاح الدين يعرف بأنه طالما كان نور الدين في الشام فإنه قد تسول له نفسه المسير إلى مصر وضمها إليه متى سنحت له الفرصة بذلك . ولهذا فقد كان صلاح الدين يفكر في الأراضي التي سينسحب إليها إذا ما قدم نور الدين للاستيلاء على مصر . ولم يكن هذا الأمر بسر يخفى على أحد . وبينما كان يفكر هو وأهله في الالتجاء إلى بلاد النوبة بوصفها امتدادا طبيعيا للأراضي المصرية أشار عليه عمارة اليميني بأن يستولي على اليمن ، ويجعلها الملجأ له من جيوش نور الدين ، وبذلك أصبح له خياران أحدهما النوبة والآخر اليمن .

ولكي يضمن انسحابا مأمونا دون خسائر أو عقبات عندما يحين الوقت فقد عزم على القضاء على إمارة كنز الدولة ، تلك الإمارة التي أقامتها قبيلة ربيعة العربية في صعيد مصر وصحراء البجة حتى عيذاب . وكان عليه أيضا أن يمنع أي تحالف ممكن بين جند السودان في القاهرة والقبائل العربية وربيعه في الصعيد حتى لا تشتد المقاومة في المستقبل عندما يتأزم موقفه .

وكان على صلاح الدين ، بوصفه وزير الخلافة الفاطمية ، أن يبذل كل جهد ممكن لصد العدوان الصليبي ، والتفرقة بين خصومه داخل مصر وخارجها .

عرف مؤتمن الخلافة وضع صلاح الدين الحرج ، فقرر على حد قول بعض المؤرخين ، أن يقضي عليه نهائيا ، وذلك بإبلاغ الصليبيين سرا

بخروجه من القاهرة والثورة عليه فيها مع مواجهته في نفس الوقت بالصليبيين من جهة أخرى ، وبذلك ينتهي نفوذه ووزارته .

وعرف صلاح الدين بهذه الاتصالات بين أعدائه في الخارج ومنافسيه في الداخل ، ولذلك فإنه سرعان ما أوقع مؤتمن الخلافة في شركه ، واستطاع القضاء عليه عندما انفرد مع بطانته وجنده ، ثم وجه ضربته إلى جند السودان الذين كانوا بالقاهرة والذين كرهوا قتل صلاح الدين لزعيمهم مؤتمن الخلافة ، فثاروا عليه وأرادوا القضاء على جنده من أكراد وأتراك . وكان جنود صلاح الدين يعرفون كيفية استعمال النفط في القتال ، فيرمون بالنفط المحترق القصور والدور والقلاع فشتتعل هذه المباني بالنار ، وتعم الفوضى ، ويتدافع الناس للخروج مما هم فيه من حريق فيتناولهم جند صلاح الدين بالسيوف والرماح وغيرها فيقضي عليهم . وقد هدد صلاح الدين وأخوه شمس الدولة الخليفة العاضد بالله وهو في قصره يتفرج على القتال الدائر بين السودان والأتراك . وأمر صلاح الدين بإحراق قصر الخليفة الفاطمي بنيران النفط الا أن " زعيم الخلافة " السوداني البشرية أشار نيابة عن الخليفة إلى صلاح الدين بالقضاء على الجند السودانيين وموافقة الخليفة على ذلك . فضعف عضد الجند السودان ، وقويت شوكة الأكراد والأتراك ، فاستطاعوا الإطباق على هؤلاء الجند ، وكسروا شوكتهم ، وقضوا عليهم وعلى من آزرهم من مصريين وأرمن وغيرهم حتى لم تبق لهم قوة يستندون إليها . وبذلك فاز صلاح الدين بهذه الجولة التي جعلت الخليفة الفاطمي تحت رحمته لا يملك لنفسه من الأمر شيئا .

ولم يطل بقاء العاضد بالله في الحياة بعد هذه الواقعة ، إذ قضى نحبه بعد ذلك بأيام قليلة ، وخلا منصب الخلافة الفاطمية بمصر . وكان صلاح

الدين يتطلع إلى هذا اليوم ليحتل هذا الملك ، وهذا ما فعله عند خلو
الخلافة. وقد كان موقف صلاح الدين في القاهرة قويا، ولم يعد هناك ما
يهدده ، أو من يزاحمه في السلطان. وسادت قبضته على الأراضي المصرية
وأصبح الزعيم السياسي الذي لا ينازعه أحد فيها .